المتضمنات الطبقية لفلسفة ديكارت

د. أشرف حسن منصور
أستاذ مساعد بقسم الفلسفة
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مقدمة:

قد يبدو من الغريب لأول وهلة أن تكون لفلسفة ديكارت أي علاقة بالبناء الطبقي للمجتمع الفرنسي في القرن السابع عشر، والذي شهد صعود الطبقة البورجوازية ونشأة النظام الرأسمالي الذي كانت البورجوازية القابلة التاريخية – الاجتماعية التي باشرت ولادته. فما هي الرابطة التي يمكن أن تكون بين البورجوازية الناشئة في مرحلتها الأولى ونظامها الرأسمالي المبكر من جهة، وبين نظرية المعرفة الديكارتية من جهة أخرى؟ (اليقين الذاتي، الوضوح والاتساق، التحليل)، وتأسيس ديكارت الجديد للميتافيزيقا على الكوجيتو الشهير؟ وثنائيته الشهيرة بين النفس والبدن؟

الحقيقة أن الرابطة قوية للغاية. ففلسفة ديكارت ترتبط أشد الارتباط بالسياق الاجتماعي والسياسي والتاريخي لعصره ولطبقته التي انتمى إليها. وتوضيح هذا الارتباط هو هدفنا من هذه الدراسة. والأساس النظري الذي اعتمدناه فيها هو التوجه النظري الذي يمكن أن نطلق عليه "المادية السوسيولوجية" Sociological Materialism، أي معالجة الفكر على أنه نتاج للشروط المادية التي تعيشها طبقة ما. هذا التوجه لا يرد الفكر إلى الشروط المادية مباشرة ولا يرده إلى الشروط الاجتماعية حصرياً، بل يعالج الانتماء الطبقي على أنه محدِّد مادي – اجتماعي في الوقت نفسه باعتباره شارطاً للإنتاج الفكري للمفكر. ظهر هذا التوجه لدى العديد من أعلام الاتجاه المادي التاريخي. فقد سبق للعديد من المفكرين الذين ينتمون إلى هذا الاتجاه أن تناولوا فلسفة ديكارت باعتبارها كاشفة عن رؤية البورجوازية في مرحلتها المبكرة للعالم، ومن هؤلاء: جورج لوكاتش في "التاريخ والوعي الطبقي"[١]، وسارتر في كتابه "البحث عن منهج"[٢]، ولوسيان جولدمان في كتابيه "الإله المختفي"[٣] و"إمانويل كانط"[٤]، وأنطونيو نيجري في كتابه "ديكارت السياسي"[٥]. وتهدف هذه الدراسة الوصول إلى رؤية شاملة لفلسفة ديكارت، تبرز مشروطيتها الطبقية بالاعتماد على كل هذه المعالجات السابقة.

---

1) Lukacs, Georg, ***History and Class Consciousness***. Translated by Rodney Livingstone. (London: Merlin Press, 1967).
2) Sartre, Jean-Paul, ***Search For A Method***. Translated with Introduction by Hazel E. Barnes (New York: Alfred A. Knopf, 1963).
3) Goldmann, Lucien, ***The Hidden God: A Study of the Tragic Vision in the Pensee of Pascal and the Tragedies of Racine.*** Translated by Philip Thody. (London and New York: Routledge, 2014, 1st ed. 1964).
4) Goldmann, Lucien***, Immanuel Kant*** (London/ New York: Verso, 2011/ first published 1945)
5) Antonio Negri, ***The Political Descartes:*** *Reason, Ideology, and the Bourgeois Project*. Translated and introduced by Matteo Mandarini and Alberto Toscano. (London. New York, Verso, 2007)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أولاً: علاقة فكر ديكارت بالوضع الطبقي للبورجوازية الفرنسية في القرن السابع عشر:

١. الوضع الطبقي لبورجوازية القرن السابع عشر:

عندما وجدت البورجوازية نفسها في وضع وَسَطي بين سلطات مَلَكية وكَنَسية متحالفة، وطبقة من العمال والفلاحين الذين تم عزلهم عن وسائل إنتاجهم الطبيعية والمباشرة من جراء عمليات التراكم الأصلي[٦]، صار المجال الوحيد لنشاط هذه البورجوازية والذي يمكن أن تكون مهيمنة عليه بالكامل وتحصل فيه على مكانة متميزة هو الاقتصاد والثقافة، على الرغم من البون الشاسع بين هذين المجالين. ففي مجال الاقتصاد تولت البورجوازية مهمة تنظيم السوق والإنتاج وفق منطق رأس المال، وفي مجال الثقافة سعت البورجوازية لتقديم نفسها بفلسفة في العقلانية الفردية المستجيبة لنزعتها الفردية الأصلية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية. وصار استقرار المجتمع لديها يأتي من الاستقرار في المجال الاقتصادي والمجال الثقافي ومجال العلاقات الاجتماعية (لا مجال السياسة أو الدين أو التشريع مثلاً). وبذلك نشأت الثنائية التاريخية بين الدولة من جهة والمجتمع المدني الذي تسيطر عليه البورجوازية من جهة أخرى. هذا المجتمع المدني المُشكَّل بورجوازياً يجب أن يكون هو مجال الحرية البورجوازية والنزعة الفردية، وأن يكون هو المجال الذي يحمي مصالح البورجوازية ذاتها، والتي كانت مصالح اقتصادية وثقافية بالدرجة الأولى. أي أن البورجوازية في عصر ديكارت كانت تحاول إيجاد مجال لهيمنتها في تنظيم علاقات الإنتاج الرأسمالية وفي الفلسفة العقلانية في الوقت نفسه. هذا التضافر بين الهدف الاقتصادي المادي البحت والهدف الثقافي الخالص هو ما عبرت عنه الديكارتية. ولذلك لم تكن فلسفة ديكارت راديكالية أبداً، بل كانت مهادنة للسلطات القائمة ومنها سلطة الكنيسة، وهذا ما يظهر واضحاً في إهداء ديكارت لتأملاته

---

6) يشير مصطلح التراكم الأصلي Ursprung Akumulation إلى عملية نزع ملكية الأراضي العامة التي كانت متاحة للزراعة والرعي في إنجلترا وبعض مناطق أخرى في أوروبا الغربية ابتداءً من القرن الخامس عشر، وتحويلها إلى ملكية خاصة بتسييجها ومنع عامة المزارعين من الاستفادة منها، وهي أول عملية خصخصة لما هو عام في تاريخ الرأسمالية، وبها بدأت عملية فصل المنتجين عن وسائل إنتاجهم الطبيعية والمباشرة وتحويلها إلى ملكية خاصة. كانت الطبقة البورجوازية هي التي تباشر عملية نزع الملكية العامة هذه ولصالحها، إذ كانت هي المالك الجديد. وأنا أفضل مصطلح التراكم "الأصلي" Primal/ Primary لا "الأولي" أو "البدائي" Primitive؛ لأن "الأصلي" أكثر تعبيراً عن المعنى المقصود بكلمة Ursprung الألمانية التي استخدمها ماركس في كتابه "رأس المال".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلى عميد وأساتذة كلية اللاهوت بجامعة السوربون[٧]، مقدماً ميتافيزيقاه لهم باعتبارها داعمة للقضية الأساسية التي تدافع عنها الكنيسة وهي خلود النفس الفردية، في مواجهة التيار الرشدي الذي كان يقول بالخلود النوعي للنفس الكلية خلوداً عقلياً. كما تظهر مهادنته للسلطات الدينية والسياسية واضحة في قوله: "*وكنت أجلُّ علومنا الدينية، وأطمع كغيري في الجنة، ولكن لما علمت علماً مؤكداً أن الطريق إليها ليس ممهداً... وأن الحقائق الموحى بها والتي تهدي إلى الجنة هي فوق فهمنا، لم يكن لي أن أجرؤ على أن أسلمها لضعف استدلالاتي، ورأيت أن محاولة امتحانها امتحاناً موفقاً تحتاج لأن يُمَد الإنسان من السماء بمدد غير عادي، وأن يكون في مرتبة فوق البشر*"[٨]. هنا يظهر بوضوح تخلي ديكارت عن عقلانيته بتنازله للسلطة الدينية عن مهمة الفحص العقلي للعقائد الدينية ولعلوم الدين، واضعاً هذه المهمة فوق قدرات العقل البشري وقدرات الإنسانية كلها. لقد كان ديكارت مستعداً على الدوام لتنحية العقل جانباً إذا تعلق الأمر بالاقتراب من احتكار السلطة الدينية للحقيقة.

ولأن البورجوازية قد أُجبرت على مهادنة السلطتين الملكية والكنسية، فلم تكن طبقة ثورية أبداً في القرن السابع عشر[٩]، بل كانت إصلاحية بنزعة محافظة، وذلك لأنها اتخذت النظام الملكي داعماً لها، واتخذت الحياد تجاه الدين والفرق الدينية توجهاً ثقافياً وأيديولوجياً ثابتاً. هذا الطابع اللاثوري للبورجوازية، المحافظ والمهادن والإصلاحي، ينعكس في فلسفة ديكارت التي يرى نيجري أنها كانت أكثر فلسفة معبرة عن هذا الوضع التاريخي والسياسي للبورجوازية في القرن السابع عشر[١٠]. وهذا التوصيف هو نفسه الذي سيحكم نيجري على أساسه على فلسفة سبينوزا بأنها خارجة عن مألوف عصرها anomaly، بسبب ثوريتها التي في غير أوانها[١١]. وثورية فلسفة سبينوزا التي في غير أوانها كانت هي السبب في

---

7) ديكارت: تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى. ترجمة كمال الحاج. منشورات عويدات، بيروت/ باريس، ١٩٨٨. ص ٥.

8) ديكارت: مقال عن المنهج. ترجمة محمود الخضيري. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٦٨، ص ١١٦ – ١١٧.

9) ولا في أي عصر آخر حسب أحدث الدراسات حولها، وهو ما يتضح في الكتاب التالي: Neil Davidson, ***How Revolutionary Were the Bourgeois Revolutions?.*** (Chicago: Haymarket Books, 2012).

10) Antonio Negri, The Political Descartes, pp. 6 – 10.

11) Antonio Negri, The Savage Anomaly: The Power of Spinoza's Metaphysics and Politics. Translated by Michael Hardt. (Minneapolis, Oxford: University of Minnesota Press, 1991), pp. 3 – 11.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حظرها وإدانتها طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وهذا أكبر دليل على أن البورجوازية لم تكن طبقة ثورية، إذ لم تتحمل ثورية فلسفة سبينوزا.

لكن لنعد إلى ما كنا فيه ونقول إن لا-ثورية البورجوازية ومحافظتها وإصلاحيتها ظهرت في فلسفة ديكارت، وذلك في تأملاته التي حاول فيها إثبات وجود الله وخلود النفس الإنسانية، وهي نفس المعتقدات الدينية التقليدية التي تقوم الكنيسة على أساسها. لكن لأن ديكارت بورجوازي في الأساس، ولأن الحرية الفردية قيمة بورجوازية عليا، فقد أراد المحافظة عليها في نفس وقت مهادنته للسلطة الكنسية؛ إذ جاءت برهنته على وجود الله وخلود النفس مؤسسة على الأنا أفكر وعلى الشك المنهجي في البداية، ذلك الشك وهذا الأنا أفكر المعبران عن قيمة الفردية البورجوازية.

قدم ديكارت تأملاته لأساتذة اللاهوت بجامعة السوربون، لكن هل أثبت بمنهجه الجديد نفس العقائد المسيحية التي تدافع عنها الكنيسة الكاثوليكية؟ إن ما نجده في تأملاته هو مجرد إثبات لوجود الله فقط، ولا نجد أبداً إثباتاً للعقائد المرتبطة بشخص المسيح وطبيعته: الخطيئة الأصلية والفداء والقيامة والثالوث. وهذا هو الوجه الإصلاحي لتأملات ديكارت. إنه كما لو كان يريد القول إن استخدام العقل وحده لن يثبت لنا إلا وجود الله، أما الكريستولوجيا[١٢] فليس لها مكان في الاستخدام التأملي للعقل الفطري؛ وكأن ديكارت كان يشير من طرف خفي إلى أن الكريستولوجيا خارج نطاق العقل وهو لا يستطيع إثباتها أو حتى الإشارة إليها من بعيد. ناهيك عن أن فطنة ديكارت جعلته يبتعد عن هذا الموضوع الذي كان نقطة الخلاف الأصلي بين الكاثوليك والبروتستانت في عصره. وبذلك اتصفت تأملاته بأنها لم تدخل في الصراعات العقائدية والطائفية الدائرة في عصره حول طبيعة المسيح.

أما بالنسبة لخلود النفس، فقد كان ديكارت واضحاً في إثباته لخلود النفس الفردية عن طريق إثباته لاستقلال فعل التفكير عن البدن، وإثبات شخصية وفردية وذاتية هذا الفعل، مما يؤكد على فردية الخلود المرتبط بالنفس العاقلة. لكن ما أخفاه عن قُرائه هو المذهب الآخر في الخلود والذي كان يواجهه ضمناً دون التصريح به، وهو المذهب القائل بفناء النفوس الفردية مع فناء أبدانها والخلود النوعي للنفس الكلية، وهو المذهب الذي كانت تعتنقه الرشدية اللاتينية والرشدية الإيطالية في عصر النهضة، والتي كانت أكثر

12) الكريستولوجيا Christology هي أحد العلوم اللاهوتية المسيحية الذي يدرس طبيعة المسيح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثورية من فلسفة ديكارت، لاعتمادها على الرشدية الأكثر ثورية من الديكارتية. ولم تستطع الفلسفة الأوروبية أن تعود ثورية مرة أخرى إلا مع سبينوزا وأتباعه، ثم مع المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر (ديدرو، هولباخ، هلفشيوس، لامتري).

٢. تحديد الشريحة الاجتماعية التي انتمى إليها ديكارت:

كي نتفهم البواعث الاجتماعية والتاريخية العميقة التي تكمن خلف فلسفة ديكارت، يجب علينا التعرف على الفئة الاجتماعية التي كان ينتمي إليها. كانت هذه الفئة هي شريحة من الطبقة البورجوازية المنشغلة في الوظائف السياسية والإدارية للنظام الملكي الفرنسي، والمرتبطة بمجالس حكم المدن، أو برلماناتها، والمرتبطة كذلك بالمحاكم. كانت هذه الفئة تسمى "نبلاء الروب" Noblesse de Robe، نظراً لما تتميز به من ارتداء زي معين في البرلمانات والمجالس المحلية والمحاكم. وكان مصدر نبالتها هو الوظائف المهمة التي كانت تشغلها في الهيكل الإداري. كانت هذه الفئة من البورجوازية في الأصل، لكنها تمكنت من الصعود لمرتبة الأرستقراطية نظراً لأهميتها في جهاز الدولة وفي برلمانات المدن والمقاطعات. وكان أعضاؤها يتم تمييزهم باعتبارهم نبلاء "الروب" في مقابل الفئات الأخرى من الأرستقراطية مثل نبلاء "السيف"، وهم طبقة الفرسان والعسكريين عموماً، ونبلاء "الأرض"، وهم الطبقة الإقطاعية التي كانت ملكية الأرض مصدر ثروتها. وبالتالي كانت فئة نبلاء الروب هي التي استطاعت تبوء مكانة عالية في المجتمع الفرنسي تساوت مع الأرستقراطية بفضل كفاءتها الإدارية والقانونية والتنظيمية. وكان يُعرف عن هذه الفئة نبوغها في التعليم والثقافة والإنتاج الفكري والأدبي[١٣].

كان ديكارت ابناً لأحد نبلاء الروب هؤلاء، إذ كان أبوه مستشاراً لبرلمان مقاطعة بريتاني، وورث عن أمه أملاكاً واسعة في بواتو ضمنت له دخلاً كبيراً منتظماً. كانت مهمة هذه الفئة من البورجوازية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر هي تدعيم طبقتها سياسياً في مواجهة الدولة والنظام الإقطاعي والأرستقراطية القديمة. فبعد الصعود الاقتصادي الذي شهدته هذه الطبقة والذي تمكنت به من الحصول على مكانة اقتصادية هامة، بدأت في القرنين السادس عشر والسابع عشر تترجم المكانة الاقتصادية العالية

13) Goldmann, The Hidden God, pp. 103 ff; cf. Pierre Bourdieu, The State Nobility: Elite Schools in the Field of Power. Translated by Lauretta C. Clough (Cambridge: Polity Press, 1996), pp. 327-335, 377-381.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بمكانة ثقافية وسياسية مماثلة. وهكذا صعدت أهمية فئة نبلاء الروب داخل البورجوازية، لأنها هي الفئة التي كانت تتولى المناصب الإدارية وتتبوأ مكانة ثقافية عالية. ولما كانت الثقافة والسياسة تمارسان في المجتمع المدني، فقد نظرت هذه الفئة للمجتمع المدني على أنه مجال عملها الأساسي، وعلى أنه مجال تحقق الحرية والعقلانية في مقابل الدولة والكنيسة؛ وبذلك ظهرت في هذه الأثناء الثنائية الشهيرة بين المجتمع المدني والدولة. وعندما يقول ديكارت إنه لن يسمح بشكه المنهجي لأن يمتد ليصل إلى قوانين بلاده وسلطاتها الحاكمة ودينها السائد ومؤسساتها السياسية والدينية، فقد كان سائراً بذلك في عمق الرؤية البورجوازية للعالم الاجتماعي، تلك الرؤية التي بحثت عن مجتمع مدني مستقل بذاته ومتحرر من ضغوط السياسة والدين. صحيح أن عصر ديكارت لم يشهد مكانة سياسية متميزة لنبلاء الروب، إلا أن الصعود التالي لهذه الفئة كان مرافقاً لصعود الديكارتية التي كانت هي التعبير الفلسفي عنها؛ والملاحظ أنه خلال القرن الثامن عشر صارت وظائف نبلاء الروب وراثية، حتى أنه عند اندلاع الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ كانت طبقة نبلاء الروب وراثية بالكامل، وكان يُنظر إليها على أنها من الأرستقراطية، ثم قضت عليها الثورة.

كانت فئة نبلاء الروب في العصر السابق على ديكارت أكثر ثورية في السياسة وفي الفكر. فقد صاحب صعودها الاقتصادي طموحاً في صعود سياسي وثقافي مماثل؛ إذ سعت هذه الفئة نحو الحلول محل الطبقات الأرستقراطية الأقدم، ومحل الكنيسة بمشروعاتها الثقافية والفكرية، إذ كانت تهدف إحلال العقل محل التراث الديني. لكنها اصطدمت بالسلطات القديمة التي كانت متمكنة للغاية، سياسياً ودينياً. وبعد أن كانت تطمح للهيمنة السياسية والفكرية الكاملة، رضيت بأن تكون فئة اجتماعية متميزة تنبغ في الإدارة والتخطيط والفكر والثقافة دون مطامع سياسية عالية. وبذلك انقلبت من فئة ثورية إلى فئة محافظة إصلاحية. وظهر ديكارت أثناء هذا التحول الذي حصل للبورجوازية في فرنسا، وكان مُشبعاً بذلك الانعكاس الفكري لوضعها الطبقي الجديد؛ فمهادنة الوضع القائم سياسياً ظهرت لديه في مهادنة فكرية: عدم الاصطدام بالدين أو الدولة وقبول قوانين البلاد كما هي. لقد انعكس حال البورجوازية الفرنسية في القرن السابع عشر على فكر ديكارت[١٤]. فبعد أن فشلت البورجوازية في السيطرة على الدولة سياسياً، انعزلت إلى طموحاتها

14) Negri, The Political Descartes, pp. 93 – 95.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفردية وقويت نزعتها الفردية وظهرت على المستوى الفلسفي عند ديكارت في نزعة ذاتية: أنا أفكر إذن أنا موجود. هذه العبارة تكشف عن نمط حياة فئة نبلاء الروب من البورجوازية الفرنسية، فوجودها كفئة مرتبط بالعمل الذهني، وأهميتها الاجتماعية تأتي من تميزها الفكري.

٣. فكر ديكارت انعكاس لمرحلة تطور البورجوازية:

لم تكن فلسفة ديكارت مشروطة بشكل كامل بالأوضاع الطبقية للبورجوازية، ذلك لأن هذه الطبقة لم تكن كاملة النمو في عصره، ولم تكن قد وصلت إلى السلطة بعد، ولم تكن قد وصلت إلى درجة من الوعي الذاتي بنفسها، تلك الدرجة التي وصلت إليها في القرن الثامن عشر. كانت البورجوازية في عصر ديكارت لا تزال تحت الوصاية الملكية والكنسية والنظام الإقطاعي. ولذلك فإن ما يجعل فلسفة ديكارت معبرة عن رؤية البورجوازية للعالم ليس تعبيرها عن طبقة بورجوازية كاملة النمو وواعية بذاتها بالكامل، بل إن ما يجعلها بورجوازية هو دلالة هذه الفلسفة بالنسبة للتطور الرأسمالي لقوى الإنتاج في عصر ديكارت، والذي يشير إلى إمكانات مستقبلية هائلة للنمو والتطور. فالعلاقة المباشرة التي نجدها في فلسفة ديكارت هي مع العلم باعتباره قوة لامتناهية في المقام الأول، ومع الطبقة البورجوازية باعتبارها صاحبة هذه النظرة للعلم على أنه قوة في المقام الثاني؛ أي مع التصور البورجوازي – الرأسمالي للعلم على أنه أداة للسيطرة على الطبيعة وعلى أنه قوة إنتاجية بصفة أساسية.

وفي هذا الوضع الابتدائي الذي كانت فيه البورجوازية غير كاملة النمو، في حين كانت قوى الإنتاج الرأسمالية في بداية تطورها، مع ما صاحبها من اقتصاد نقدي متطور وأكثر تقدماً من درجة تطور نمط الإنتاج الرأسمالي، لم تستطع فلسفة ديكارت إلا أن تكون تعبيراً عن قوى الإنتاج الجديدة. تمثل هذا التعبير في ترتيب ديكارت لنظرية المعرفة بحيث تعكس في داخلها عملية العمل السائدة في عصره، أي رصد المشكلة وتحليلها إلى عناصرها البسيطة، ثم إعادة تركيبها مرة أخرى بطريقة تؤدي إلى حل هذه المشكلة[١٥]. والمشكلة في العالم المادي الواقعي هي المهمة الإنتاجية التي يجب أن تسير

---

15) ديكارت: قواعد لتوجيه الفكر. ترجمة وتقديم سفيان سعد الله. دار سراس للنشر، تونس ٢٠٠١، ص ٣٠ وما بعدها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حسب تقسيم العمل السائد. فعملية العمل وفق درجة التطور التي وصلت إليها في عصر ديكارت يجب أن تُقسم إلى أبسط مكوناتها حتى يتم تنظيمها وتوزيعها من أجل كفاية إنتاجية أعلى. وبذلك كان منهج ديكارت التحليلي – التركيبي معبراً عن عملية تقسيم العمل في عصر المانيفاتورة، عصر الصناعة الأولى قبل ظهور الميكنة والمحرك البخاري. وهذا هو ما كشف عنه "مقال عن المنهج". فكما يقول ماركس عن ديكارت، لا يقتصر أمر الرابطة الوثيقة بين المنهج الديكارتي والعصر البورجوازي على طريقتي التحليل والتركيب، بل تصل هذه الرابطة كذلك إلى تصوره عن الحيوانات باعتبارها آلات. إذ يكشف هذا التصور عن رؤية ديكارت لقضاياه الفكرية من منظور العصر الصناعي المبكر (أو عصر المانيفاتورة)، في حين أن نظرة العصور الوسطى للحيوانات كانت تعتبرها مجرد مساعدة للإنسان. فالنظر إلى الحيوانات على أنها أدوات إنتاجية كان نابعاً من تبني ديكارت فكرياً لمستوى تطور قوى الإنتاج في عصره واستخدام هذا المستوى في النظر إلى القضايا الفكرية. كذلك حكمت هذه النظرة رؤية ديكارت للجسد الإنساني على أنه آلة؛ ولا يمكن النظر للجسد على أنه آلة إلا عندما يتحول الإنسان إلى عامل ويتم التعامل معه باعتباره قوة إنتاجية خالقة للقيمة ومصدراً للربح. وبذلك كان منهج ديكارت حسب ماركس موجهاً بدافع سيطرة الإنسان على الطبيعة، وهي السيطرة الآلية التي كانت ممكنة في عصره، وبدافع سيطرة الإنسان على الجسد الذي صار قوة إنتاجية[١٦]. هذا بالإضافة إلى أن نظرة ديكارت لفلسفته على أنها أرفع مكانة من فلسفة العصور الوسطى على أساس نفعها العملي وفائدتها العملية وتشبيهه إياها بالصنائع والمهارات العملية في قدرتها على حل المشكلات، تنبع من تبنيه للمنظور البورجوازي للعلم على أنه قوة إنتاجية[١٧].

أما تجنب ديكارت لتوسيع شكه المنهجي إلى مجالات السياسة والدين والأخلاق، فقد كان تعبيراً عن رغبة البورجوازية آنذاك في عدم الصدام مع القوى التي كانت لا تزال

16) Marx, Capital, I. (Moscow: Foreign Languages Publishing House, 1959), P. 390.
كانت السيطرة على الجسد باعتبارها من آليات السلطة الانضباطية الجديدة التي جاءت بها الحداثة الأوروبية موضوع دراسة ميشيل فوكو في عمله الشهير "المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن". ترجمة علي مقلد. مركز الإنماء القومي، بيروت ١٩٩٠.

17) István Mészáros, Social Structure and Forms of Consciousness. Vol. I: The Social Determination of Method. (New York: Monthly Review Press, 2010), pp. 20 – 21, 27 – 28.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذه البورجوازية تحت وصايتها: الدولة الملكية المطلقة، والكنيسة، والنظام الإقطاعي. وفي هذا السياق لا يمكن فصل العقلانية التي يبدو عليها المنهج الديكارتي عن العقلانية التي تراها البورجوازية لعملية تقسيم العمل الجديدة التي كانت هذه الطبقة تتولاها في عصر ديكارت.

ثانياً: المحتوى الاجتماعي للمقال عن المنهج:

١. نمط الإنتاج ونظرية المعرفة:

ولأن البورجوازية قد ارتبطت في نشأتها بنمط الإنتاج المانيفاتوري، ولأن هذا النمط يتطلب سيطرة ما على الطبيعة، فقد انعكس هذا الوضع في فلسفة ديكارت واتخذ شكلاً فكرياً. إذ كان يبحث منذ شبابه وفي أعماله الأولى عن صيغة فكرية تضمن السيطرة الفكرية على الطبيعة موازية للسيطرة الإنتاجية البورجوازية عليها[١٨]. لكن لأن صناعة المانيفاتورة تتطلب السيطرة على عملية العمل ذاتها كشرط قبلي للسيطرة على موضوع العمل وعلى عناصر الإنتاج المادية، فقد ظهرت قيمة السيطرة على الطبيعة عند ديكارت في صورة سيطرة على الفكر، بضبطه وتنظيمه وعقلنته، ذلك لأن الفكر المؤهَّل للسيطرة على الطبيعة يجب أولاً أن يسيطر على نفسه، وظهر هذا في مقاله عن المنهج وفي "قواعد هداية العقل". ولذلك فالذي حكم هذين الكتابين هو النموذج القبلي، التاريخي والمادي، للسيطرة على عملية العمل[١٩].

يقول نيجري واصفاً الارتباط الوثيق بين نمط الإنتاج المادي في عصر ديكارت ونمط الإنتاج الفكري لفلسفة ديكارت: "*كيف تم التعبير [الفكري] عن هذا السياق [المادي]؟ أولاً، في الاقتراح بمشروع جديد لامتلاك العالم يبدأ بفصل عناصره*"، وفصل العناصر هو الذي يميز عصر المانيفاتورة، في العملية الإنتاجية نفسها وفي عملية تقسيم العمل المانيفاتوري، ونموذجه الشهير هو مصنع المسامير في كتاب "ثروة الأمم" لآدم سميث؛ "*وهو الذي ينتهي بعد إعادة بناء هذه العناصر بإعطائنا العالم مرة أخرى في صورة أكثر ثراءً*"، أي في صورة أكثر ربحاً بعد إضافة القيمة الزائدة التي يضيفها العمل على مواد الإنتاج. وهذا تعبير عن أن عملية العمل بعد أن يتم تقسيمها ثم تجميعها تعطينا منتجاً

18) Sohn-Rethel, Alfred, Intellectual and Manual Labour: A Critique of Epistemology (London: Macmillan, 1978), pp. 77-78.
19) Negri, The Political Descartes, P. 96.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جديداً يعبر عن عالم أكثر ثراءً، أي قيمة زائدة، وهو هدف العملية الإنتاجية منذ البداية. هذا هو منهج التحليل والتركيب الديكارتي؛ ويثبت نيجري اعتماد هذا المنهج على عملية تقسيم العمل السائدة في ذلك العصر. لقد كان منهج ديكارت وقواعده انعكاساً لعملية تقسيم العمل؛ *"ثانياً، عن طريق تقسيم [ذهني] للعمل، كاشفاً بذلك عن وظيفته المتزايدة الأهمية في إعادة تعريف وحدة العالم. إن القواعد [الديكارتية] تضع هذه المشكلة منذ البداية، واضعة في صورة إشكال، الطبيعة النقائضية (لكن الضرورية) للفصل بين العلوم التطبيقية، وافتراض إعادة البناء المنهجية للوحدة"*، أي أن القواعد المنهجية الديكارتية تقوم بالفصل بين العلوم التطبيقية وعينها على وحدة وتكامل موضوعها في الوقت نفسه، وهذا أيضاً انعكاس لعملية تقسيم العمل المانيفاتوري. وباعتبار المنهج الديكارتي *"إمكانية لفهم الواقع باعتباره عملية من التقسيم التحليلي وإعادة البناء الإنتاجية"*، فإن المعرفة العملية والحكمة البشرية يصيران جزءاً من عملية العمل المادية. *"وهكذا فإن التمثيلات المتكررة للعمل الحرفي في قواعد ديكارت ليست مجرد استعارات... فالواقع أن التقنيات الحرفية [المرتبطة بالصناعة المانيفاتورية] تدعم المعرفة وتعمل على تقدمها، تماماً مثلما تبني العالم وتتعامل معه بنائياً"*[٢٠].

وتأكيداً على تحليل نيجري، فإن النص التالي لديكارت والذي هو شرح لقاعدة التحليل، يتضح منه ربطه إياها بالفنون الحرفية اليدوية التي كانت لا تزال سائدة في عصره. هذا الربط هو أوضح دليل على أن الفكر قائم في الأساس على الممارسة العملية وعلى تقسيم العمل السائد، وأن قواعد ديكارت كلها نابعة من الصناعة المانيفاتورية الجديدة. يقول ديكارت: *"بما أنه ليست كل العقول لديها ذلك الاستعداد الطبيعي لفك تعقيدات الأشياء بنفسها، فإن رسالة هذه القاعدة هي أننا لا يجب علينا أن نتولى المهام الأكثر صعوبة ومشقة من البداية، بل يجب علينا أولاً تناول أسهلها، وخاصة تلك التي يسود فيها نظام ما، مثل النسج وصناعة السجاد، أو الفنون المرتبطة أكثر بالنساء مثل الحياكة والتطريز، حيث تتشابك الخيوط في أنماط لامتناهية من التنوع... فمن المدهش كيف أن كل هذه الأنشطة تحفز عقولنا وتدربها... فبما أنه لا شيء يظل خفياً في هذه الأنشطة وأنها مناسبة لقدراتنا الذهنية، فهي تقدم لنا النظام في أقصى تمايزه وتنوعه، على اختلافها الشديد عن بعضها البعض على الرغم من أنها كلها منتظمة. ذلك لأن الحكمة*

20) Ibid: pp. 96 – 97.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإنسانية تتأسس بالكامل في الملاحظة المناسبة لهذا النظام"[٢١]. نلاحظ هنا عملية تقسيم فعلي للعمل المادي، ينظر إليها ديكارت على أنها هي أساس ونموذج تقسيم العمل الذهني. فقواعد التحليل والتركيب قائمة على أساس الفنون الصناعية المرتبطة بالصناعة اليدوية أو المانيفاتورة. إنها عملية إنتاج قائمة على أساس إضفاء النظام على الأشياء المادية. وهذا ما يؤكده قول ديكارت: "*إن منهجنا... يماثل الإجراءات المتبعة في الصنائع المهارية، والتي لا تحتاج إلى مناهج أكثر من مناهجها الخاصة، والتي تتبع توجيهات ذاتية في إمداد نفسها بأدواتها*"، فعملية العمل ذاتها هي مصدر النظام والترتيب المطلوب في هذه العملية، وهي الأساس الذي تنشأ منه الأدوات المناسبة للقيام بهذا العمل، "*فإذا احتاجت عملية العمل إلى مطرقة ومنشار، قام الحرفي بصنع هذه الأدوات كي يتم مهمته*"[٢٢]. وبذلك تنشأ أدوات العمل من خلال عملية العمل نفسها، ويصير العالم أكثر ثراء مما قبل، وما يحدث في عملية العمل المادي يحدث في عملية العمل الذهني؛ فالذهن يمد ذاته بقواعده الخاصة المنظمة لعملياته، تماماً مثلما يصنع الحرفي أدوات عمله بنفسه ويخترع التقنيات المناسبة لإجراء المهمة التي أمامه، وكل ذلك من أجل أن تصير المادة منظَّمة بعد العمل. إن نتاج عملية العمل يصير أكثر ثراء من المواد الخام ومن مجموع الأدوات المستخدمة في الإنتاج، وهذه هي القيمة الزائدة التي يضفيها العمل على عناصر الإنتاج. وهكذا تعكس قواعد منهج ديكارت عملية العمل في عصر المانيفاتورة، وتصير بذلك هي الانعكاس الذهني للنشاط المادي السائد في عصر ديكارت.

والملاحظ هنا كيف أن ديكارت يهتم بأدق التفاصيل الصغيرة، في نفس الوقت الذي تهتم فيه ميتافيزيقاه بالمسائل الكونية الكبيرة: الكوجيتو ووجود الله وخلود النفس. هذا الاهتمام بالتفاصيل الصغيرة والمسائل الكبيرة في الوقت نفسه كان هو المميز لطبقة البورجوازية في عصر ديكارت والمعبر عن أسلوب حياتها. فهي المنشغلة بالصناعة المانيفاتورية وتفاصيلها الصغيرة والتي تقوم بنفسها بعملية تقسيم وتنظيم العمل الصناعي من جهة، وهي أيضاً المنشغلة بقضايا المصير الإنساني من جراء طموحها الثقافي الإنسانوي من جهة أخرى.

---

21) Descartes: "Rules for the Direction of the Mind", in The Philosophical Writings of Descartes, vol. I, (London. New York: Cambridge University Press, 1985), P. 35.
22) Ibid, P. 31.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢. تجاور النزعة الفردية ونزعة الهيمنة على الطبيعة:

إن "المقال عن المنهج" تسوده المراوحة بين النزعة الفردية المغرقة في الانعزالية والنزعة الأداتية الشاملة نحو السيطرة على الطبيعة. هاتان النزعتان تتجاوران إلى حد يُمكِّن القاريء من ملاحظة التناقض بينهما بسهولة، إذ هما معاً يكشفان عن الأنا في مواجهة عالم تريد السيطرة عليه سيطرة أداتية[٢٣]. كما أن ما يظهر في المقال أيضاً هو الرغبة في السيطرة على العالم عن طريق المعرفة بهذا العالم ابتداءً، بحيث تكون المعرفة الصادقة مشروطة بإمكان السيطرة؛ فأنا أعرف العالم جيداً وعلى نحو صادق إذا كنت قادراً على السيطرة عليه، وطالما مكنتني معرفتي هذه من السيطرة عليه. فإمكان السيطرة على موضوع المعرفة أداتياً هو الشرط القبلي للمعرفة ذاتها. هذه السيطرة في حد ذاتها مشروطة بتنظيم الذات العارفة لنفسها والتحكم فيها. صحيح أن الأنا التي يكتشفها ديكارت في "المقال عن المنهج" تحمل الملامح الفردية والمثالية الواضحة، إذ هي الأنا المعرفية المثالية لا الأنا الاجتماعية، إلا أنها في الوقت نفسه هي المتولية لمهمة السيطرة على العالم. وتتم السيطرة على العالم ابتداءً بالسيطرة على أداة السيطرة على العالم وهي الأنا. وفي هذا التحليل تتضح لنا الفردية البورجوازية في أعلى صورها، هذه الفردية التي تتأسس في مقابل عالم تريد السيطرة عليه. هذا بالإضافة إلى أن الأنا التي يكشف عنها ديكارت مقطوعة الصلة بأي شيء سابق عليها، أي بالمجتمع المحيط بها وبماضيه، أي بالمثال النهضوي للنزعة الإنسانية، وبكافة العلوم سواء بمعناها الكلاسيكي أو معناها النهضوي. والسبب في ذلك أن البورجوازية في عصر ديكارت قد قطعت مع التاريخ النهضوي السابق عليها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

٣. الطابع المحافظ للمقال عن المنهج:

ما نلاحظه في "المقال عن المنهج" هو: ١) التسليم بالوضع الاجتماعي والسياسي القائم: "*...أن أطيع قوانين بلادي وعوائدها، مع ثبات في محافظتي على الديانة التي أنعم الله علي بأن نشأت فيها منذ طفولتي...*"[٢٤]؛ ٢) الوعد بالعمل داخل هذا الوضع القائم وقبوله

23) Horkheimer, Max: "The Rationalism Debate in Contemporary Philosophy", Between Philosophy and Social Science. Selected Early Writings. Translated by G. Frederick Hunter, Mathew S. Kramer & John Torpey (Cambridge: MIT Press, 1993), pp. 217-218, 233, 279, 376.

24) ديكارت: مقال عن المنهج، ص ١٣٨.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعدم تغييره: "*وكانت حكمتي الثالثة أن أجتهد دائماً أن أغالب نفسي لا أن أغالب الحظ، وأن أغير رغباتي لا أن أغير نظام العالم، وبالجملة أن أتعود الاعتقاد بأننا لا نقدر إلا على أفكارنا ...*"[٢٥]. وينطوي هذا على رغبة البورجوازية في التكيف مع النظام الملكي والكنيسة وأخذهما كضمانة للامتيازات البورجوازية المتحققة بالفعل حتى هذا التاريخ، وهو ما يظهر واضحاً في إهداء التأملات لكلية اللاهوت بالسوربون. وبالتالي فالكوجيتو الديكارتي ليس في مواجهة مع السلطة ولا مع الكنيسة ولا مع المجتمع، بل مع العالم فقط بهدف السيطرة عليه. هذه السيطرة على العالم المادي كانت هي البديل البورجوازي عن السيطرة على السياسة والدين. وسوف تؤجل السيطرة على السياسة وعلى الدين إلى القرن القادم، عصر التنوير. ذلك لأن البورجوازية في تلك الفترة (عصر ديكارت) أدركت أن قوتها تكمن في نمط سيطرتها على الطبيعة، ووضعها المتميز وهيمنتها ليست سياسية أو دينية بل ثقافية وعلمية وتقنية واقتصادية. أما بعد أن تمكنت البورجوازية من السيطرة في هذه المجالات الأخيرة، طمحت لترجمتها إلى سيطرة سياسية في النهاية، فكانت الثورة الفرنسية.

ثالثاً: المشروطية الطبقية للتأملات الديكارتية:

١. المشروطية الطبقية لثنائية الوجود والماهية:

إن كتاب "التأملات في الفلسفة الأولى" تسوده ثنائية الوجود والماهية، تلك الثنائية التي تكشف عن انفصالهما الأصلي في وعي البورجوازية. هذه الثنائية ما هي إلا انعكاس للوضع الطبقي للبورجوازية في عصر ديكارت[٢٦]. فالماهية المنفصلة عن الوجود والسابقة عليه هي طبقة نبلاء الروب كطبقة متخصصة في الأعمال الذهنية، وهي الفرد البورجوازي الذي مُنِع من الوجود بفضل سيطرة قوى أخرى على الوجود وعلى إمكانات تحقق الماهية في الوجود، وهي قوى السلطة السياسية والدينية. وأولوية الماهية على الوجود في "التأملات" هي أولوية البورجوازية كطبقة فاعلة ومهيمنة في الاقتصاد والعلوم والفلسفة والأدب والإدارة، لكن بدون نمط وجود خاص بها ويناسبها؛ إن وجود البورجوازية، وخاصة وجود الفئة التي انتمى إليها ديكارت وهي طبقة نبلاء الروب، هو

---

25) المرجع السابق: ص ١٤٠.

26) استفدنا في هذا الموضوع من الأعمال التالية: **Horkheimer, *Eclipse of Reason*.(London and New York: Continuum, 2004), p. 73; Horkheimer, *Critical Theory*. Translated by Mathew J. O'Connell and others. (New York: Continuum, 2002), pp. 211 ff.**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الوجود الفكري والثقافي، أي الوجود الماهوي، الوجود الذي يظهر بممارسة النشاط الذهني المميز لنمط عمل البورجوازية في الاقتصاد: التخطيط والتنظيم والإدارة والتفكير والإبداع الفني والأدبي والثقافي، وهي أنشطة تمارس ذهنياً وعلى الورق قبل أن تنفذ عملياً، وتخطيطها ورقياً أهم من تنفيذها عملياً؛ البورجوازية لا تنشغل بعملية العمل المادي الحقيقية إلا بتوسط العمل الذهني وباستخدام هذا العمل الذهني. ولذلك كانت للماهية الفكرية والتصورية الأهمية على الوجود المادي الفعلي في تأملات ديكارت. لقد أطلق عليها "تأملات"، إلا أنها في الحقيقة انعكاسات ذهنية مجردة للوضع الطبقي الذي تشغله فئة البورجوازية التي كان ينتمي إليها ديكارت، ولنمط عمل هذه الفئة، وللوضع الذي كانت تشغله في تقسيم العمل الذهني السائد في ذلك العصر.

٢. المشروطية الطبقية لثنائية الأنا والعالم:

إن الثنائية التي تسود تأملات ديكارت بين الأنا والعالم مستبعدة لإمكان الهوية بينهما، ذلك لأن البورجوازية كانت مواجهة بعالم ليس من صنعها، على الرغم من أنها فاعلة فيه، وقد كانت فاعلة فيه بفكرها وحده، وفاعليتها فيه ليست على نمط الحكم والسيطرة بل على نمط الفهم والإدراك التصوري وحسب. لو كانت البورجوازية قد صنعت العالم على صورتها لنظر ديكارت إلى الأنا على أنه جزء من هذا العالم وعلى أنه الكون الأصغر، وإلى العالم على أنه الأنا الكبير والانعكاس المادي الفعلي للأنا ومجال تحققها الواقعي، وإلى الأنا على أنها في هوية كاملة مع العالم الذي صنعته، لكن كل هذا لا نراه في التأملات. إن العالم الذي هو جوهر ممتد غريب عن الأنا التي هي جوهر مفكر، والأنا مغتربة عنه نظراً لأن جوهرها هو الفكر الذي هو النقيض التام للامتداد. وبذلك كانت ثنائية الأنا والعالم وثنائية الفكر والامتداد انعكاس لاغتراب البورجوازية عن عالم تشعر أنه غريب عنها بعد أن فشلت في حكمه والسيطرة عليه.

٣. الشك الديكارتي أثر للهزيمة السياسية للبورجوازية:

ما الذي جعل ديكارت يشك في وجوده ابتداءً؟ هذا الشك ليس مجرد خطوة منهجية إجرائية من أجل الوصول إلى يقين ثابت يؤسس به وجوده، بل هو أكثر من ذلك بكثير، فهو مشروط طبقياً هو الآخر. فالوجود الذي يكون موضع شك هو الوجود المهتز من البداية، هو وجود شيء يمكن أن يوجد أو لا يوجد، يمكن أن يكون حقيقياً أو واهماً. لقد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أتى ديكارت من طبقة كانت معرضة في وجودها للتهديد المستمر وكانت تخشى من فقدان وضعها المتميز وسط قوى أعلى منها، طبقة كانت تشعر على الدوام بأنها حديثة النشأة وعرضة للاستغناء عنها في أي وقت. فطبقة نبلاء الروب لم تكن مستقلة بل كانت في عصر ديكارت تابعة للدولة، وكانت تجد مبرر وجودها من الوظائف الخاصة التي كانت تقوم بها داخل الهيكل الإداري للسلطة الملكية. وكانت طبقة وسطى بمعنى أنها وسطى بين الوجود والعدم؛ فإذا ما زادت السلطة الملكية وزادت مركزيتها فقد نبلاء الروب وضعهم الإداري المتميز، وإذا ما زادت سلطة الأرستقراطية والإقطاع زالت أهمية نبلاء الروب أيضاً. (وقد أثبتت الأحداث التاريخية اللاحقة أن طبقة نبلاء الروب كان يمكن الاستغناء عنها بالفعل، إذ قد أنهت الثورة الفرنسية وجودها، عن طريق زيادة مركزية الدولة الفرنسية، هذه المركزية التي ساهمت طبقة نبلاء الروب نفسها في تطويرها في النظام القديم دون قصد منها[٢٧]). ونظراً لحالة الوجود المتزعزع غير الثابت لطبقة نبلاء الروب، وفي أثناء العصر الذي كانت فيه غير مستقرة وغير مؤسسة لنفسها بثبات داخل المجتمع والدولة، كان من السهل على ديكارت أن يشك في وجوده ولو مؤقتاً؛ فقد كان الشك في وجوده هو انعكاس ذهني للحالة الاجتماعية والسياسية غير المستقرة للطبقة التي أتى منها. لكن يعود ديكارت لتأكيد وجوده بفكره، ويقول أنا أفكر فأنا موجود cogito ergo sum، فهو موجود لأنه يفكر. وبالتالي فالذي يعطي المبرر لوجود الذات عند ديكارت هو التفكير، أي هو الوظيفة الذهنية التي تقوم بها طبقة نبلاء الروب المتخصصة في العمل الذهني، فهو مبرر وجودها على المستوى السياسي والاجتماعي المادي، وهو مبرر وجود الذات عند ديكارت.

إن قمة الشك الذي يصل إليه ديكارت هو الشيطان الماكر الذي يوهمه أن كل ما يعرفه ويشعر به ويحس به هو مجرد أوهام، وأنه ليس له وجود حقيقي بالمرة. هذا الشيطان الماكر هو الذي يشكك البورجوازية في وجودها، لأن كل ما حولها ثبت أنه وهمي نتيجة هزيمتها السياسية وخضوعها للسلطات القائمة. لكن البورجوازية موجودة، والشيطان الماكر لا يستطيع أن يوهمها بأنها غير موجودة، لأن الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن يخضع لإيهام هذا الشيطان الماكر هو النشاط الفكري للبورجوازية، الكوجيتو،

---

27) وكان هذا هو موضوع كتاب أليكسي دي توكفيل الشهير "النظام القديم والثورة" *L'Ancien Régime et la Révolution* (1856).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المعبر عن البورجوازية كطبقة ذهنية مفكرة. لقد توصل ديكارت إلى أن الوجود الحقيقي والأنطولوجي الأساسي للبورجوازية هو وجودها الذهني، لأنها هي القائمة بالأعمال الذهنية حتى وهي منشغلة بالاقتصاد والإنتاج المادي والسياسة.

٤. ثنائية العقل والإرادة:

يذهب ديكارت في التأمل الرابع إلى أن الشيء المشترك الوحيد بينه وبين الإله هو الإرادة الحرة[٢٨]. فعن طريق هذه الإرادة تؤكد الذات وجودها بحرية خارج أي ضرورة مثلما يؤكد الإله وجوده دون قيد أو شرط. لكن يعترف ديكارت أن إرادته مختلفة عن إرادة الله، لكن في الكم لا في الكيف أو النوع؛ لأن إرادة الله تشمل أشياء كثيرة جداً بالمقارنة بإرادة الإنسان. لكن هذا الاختلاف كمي وليس نوعياً. وفي الإرادة الحرة تكون الذات أقرب إلى الإله، وأقرب إلى أن تكون مثله أو على صورته، وذلك في مقابل قول مذاهب العصور الوسطى إن ما يشترك فيه الإنسان والإله هو العقل. ومعنى هذا أن مقولة التوراة أن الإله خلق الإنسان على صورته تعني أن هذه الصورة هي الإرادة الحرة بما أن ديكارت يثبت أن ماهية الإله هي الإرادة الحرة وحدها. وهذا ملمح بورجوازي آخر في فلسفة ديكارت؛ إنها إرادة البورجوازية تلك التي تؤكد بها وجودها، لا عقلها، لأن عقلها قاصر عن تنظيم العالم، إذ العالم يسيطر عليه الملك والكنيسة والإقطاع، وتسيطر عليه عقلانية مختلفة عن عقلانية الذات وهي قوانين السوق التي لا تزال في يد السلطات الملكية والأرستقراطية والإقطاعية. ومصدر الخطأ والخطيئة عن ديكارت هو أن الإرادة أوسع نطاقاً من العقل، بحيث تتعدى ما هو متاح أمامها.

العقل عند ديكارت مَلَكة مقيَّدة بالنظام السياسي والاجتماعي القائم، إذ كي يكون عقلانياً يجب عليه أن يقبل الأمر الواقع كما هو قائم ولا يحاول تغييره. هذا الانفصال بين العقل والإرادة الحرة مميز للبورجوازية في عصر ديكارت، وهو يعبر عن ثنائية أخرى تضاف إلى ثنائياته الكثيرة المميزة للطبقة البورجوازية طوال مراحل تطورها[٢٩]. فلا يمكن للعالم أن تتم السيطرة عليه في نظر البورجوازية إلا بإقامة التوازن بين العقل والإرادة، أي التوفيق بين متطلبات الأمر الواقع السياسية والاجتماعية من جهة، وسعي البورجوازية نحو

---

28) Descartes, ***Meditations on First Philosophy***, in ***Philosophical Writings***, translated by Norman Kemp Smith. (New York: The Modern Library, 1958), pp. 215 – 216.

29) وقد أشار إليها لوكاتش تحت مسمى "تقائض الفكر البورجوازي" في كتابه "التاريخ والوعي الطبقي".
Georg Lukacs, ***History and Class Consciousness***, pp. 110 ff.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القوة والسلطة والتوكيد المطلق لإرادتها الحرة المطلقة. يجب إذن أن تعمل البورجوازية على تدعيم قوتها لكن في ظل الوضع الملكي والأرستقراطي القائم، أي يجب أن تكيف إرادتها الحرة مع متطلبات النظام القائم، وهذا التكييف هو ما نظرت إليه البورجوازية على أنه العقلانية.

رابعاً – الأساس البورجوازي لإله ديكارت:

١. الارتباط بين تصور ديكارت للإله وتصوره للسلطة المَلَكية:

يتبين لنا من رسالة ديكارت إلى ميرسن[٣٠] عدم وعيه بإشكالات قدم العالم وحدوثه، وبالتناقض في القول بإله قديم وعالم وحقائق محدثة، ويتبين كذلك فصله بين الضرورة الإلهية والضرورة الطبيعية. فهو يقول: *"وعندما تسألني ما الذي دفع الإله لخلق هذه الحقائق، أرد بأنه كان حراً في أن [يجعلها غير حقيقية]، وأن يجعل الخطوط البادئة من منتصف الدائرة إلى محيطها غير متساوية، كما أنه كان حراً في ألا يخلق العالم، وأنه من المؤكد أن هذه الحقائق ليست مرتبطة بالضرورة بماهيته مثل عدم ارتباط الأشياء المخلوقة[بالماهية الإلهية]"*[٣١]. إن ديكارت لا يميز بين الحقائق الأزلية والأشياء المخلوقة، ويضع الإله فوقهما، ولا ينظر إلى فاعلية الإله على أنها فاعلية الطبيعة وقوانينها، بل على أنها فاعلية متجاوزة للطبيعة وقوانينها الأزلية. وهو في ذلك يقف على طرف النقيض من سبينوزا الذي سوف يؤكد على كل ما أنكره ديكارت. ويكشف هذا النص أيضاً عن أن ديكارت كان ينحي جانباً الخلافات الرشدية التي كانت دائرة حتى القرن السابق عليه، تلك الخلافات التي التفت حول طبيعة الفعل الإلهي في العالم وهل هذا الفعل من طبيعة مختلفة عن فعل الطبيعة أم أنه هو فعل الطبيعة ذاتها، بالإضافة إلى قضية خلود النفس التي كشفت عن تنحية مماثلة من قِبَله للخلافات التي كانت دائرة بين الرشديين وخصومهم. وتصوره عن الإله باعتباره متجاوزاً للطبيعة وللحقائق الرياضية يذكرنا بالأشعرية ونفيها للطبائع وللسببية؛ إن تصوره عن الإله ليس سوى موروث كلامي تسرب إلى فلسفته من جراء مبالغته في حرصه الشديد على ألا يزعج السلطات الدينية في عصره.

---

30) هو الأب مارين ميرسن Marin Mersenne (١٥٨٨-١٦٤٨) لاهوتي وفيلسوف وعالم رياضيات فرنسي، كان من أشهر الشخصيات العلمية والفكرية في النصف الأول من القرن السابع عشر، وكان صديقاً لديكارت ومدافعاً مخلصاً عنه وممثلاً شخصياً له في باريس.

31) Descartes: To Mersenne, On the Eternal Truths (April 15, May 6 and May 27, 1630", in Philosophical Essays and Correspondence, edt. Roger Ariew. (Indianapolis/ Cambridge: Hackett, 2000), P. 30.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لكن السبب الأساسي لعدم جرأة ديكارت يكمن في أن المَلَكية في عصره لم تكن خاضعة للقانون ولم تكن مقيدة بعد بدستور وحكم نيابي وسلطات رقابية، فكانت مطلقة غير مقيدة بأي شيء. وقد انعكست صورة النظام الملكي المطلق غير المقيد على تصوره للإله، فتصوَّر الإله وفق نموذج الحاكم المطلق غير المقيد بقانون أو بدستور، والذي يستطيع الخروج عن النظام والقانون في أي وقت يشاء. كما أثر النظام السياسي القائم في عصر ديكارت في تصوره عن إرادة الله، إذ نظر إلى إرادة الله على أنها مناقضة لقانون الطبيعة، ونظر إلى حرية الإرادة الإلهية على أنها حرية في الخروج عن قانون الطبيعة وتجاوز لهذا القانون، وعلى أنها قوة فوق طبيعية ميتافيزيقية وعجائبية. وعندما يعود سبينوزا إلى التأكيد على كل ما نفاه ديكارت ويتخذ المواقف المعاكسة تماماً للمواقف الديكارتية، فقد كان هذا بدافع تخليص هولندا من النظام الملكي المطلق، وفصلها عن النظم الملكية المطلقة التي كانت تبغي السيطرة عليها: أسبانيا، فرنسا، النمسا. إن الأوضاع السياسية الأكثر تقدماً لهولندا جعلت فلسفة سبينوزا أكثر ثورية.

ويتأكد تحليلنا السابق من النص التالي الذي ينظر فيه ديكارت إلى قوة الإله على أنها تماثل قوة الملك. هذه المماثلة بين الإله والملك ليست مجرد مماثلة، بل هي الأصل الأول لميتافيزيقا ديكارت وللوضع الذي يحتله الإله فيها. في النص التالي نجد أن تصور ديكارت عن الإله وقانونه ونمط فعله هو تصور وسيطي ولاهوتي وليس عقلانياً بالمرة؛ فكيف ننظر بعد ذلك إلى ديكارت على أنه أبو الفلسفة الحديثة، أو على أنه الجد الأكبر للثورة الفرنسية التي أزالت النظام الملكي وأعدمت الملك؟ يمكن أن يكون أباً للفلسفة الحديثة بالمعنى الديني المسيحي لكلمة "أب"، لكنه لا يمكن أن يكون أباً للعقلانية الحديثة. يقول ديكارت في خطابه لميرسن: *"أرجو ألا تتردد في التأكيد والإعلان في كل مكان على أن الله هو الذي وضع هذه القوانين في الطبيعة مثلما يضع الملك قوانينه في مملكته. وليس هناك قانون واحد منها نعجز عن إدراكه إذا تأمله عقلنا. فهذه القوانين كلها فطرية في عقولنا تماماً مثلما أن الملك يمكنه أن يطبع قوانينه في قلوب رعاياه إذا كانت لديه القوة الكافية لذلك. وعظمة الإله في الجانب الآخر هي شيء لا يمكننا إدراكه على الرغم من أننا نعرفها. لكن حقيقة أننا ننظر إليها على أنها خارج إدراكنا تجعلنا نقدرها أكثر، تماماً مثل الملك الذي يحوز على جلال أكثر عندما يكون غير مألوف لرعاياه... سوف يقال إنه إذا كان الإله هو الذي أسس هذه الحقائق، أفلا يمكنه أن يغيرها مثلما يغير الملك*

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوانينه؟ وإجابتي عن هذا السؤال هي: بلى يستطيع، إذا تغيرت إرادته"[٣٢]. لكن هل يغير الله إرادته؟ يجيب ديكارت أن هذه المسألة خارج نطاق عقلنا: "*نستطيع أن نؤكد بعامة على أن الله يستطيع أن يفعل كل شيء في إدراكنا [معقول لنا]، لكنه ليس من المستحيل عليه أن يفعل ما هو خارج إدراكنا. فمن العبث الاعتقاد في أن خيالنا يتجاوز قوته*"[٣٣]. ومعنى هذا أن الله يمكنه أن يفعل كل شيء معقول لنا وغير معقول لنا في الوقت نفسه، لأن عقولنا قاصرة عن المعرفة الكاملة به.

ويتهم ديكارت العقل الإنساني بأنه ليس سوى خيال إذا نظر إلى شيء على أنه غير معقول وأنه يستحيل على الله فعله بسبب ذلك. الحقيقة أن المعتزلة سوف تظهر على أنها أكثر عقلانية وتقدمية من ديكارت في هذا الشأن، لقولها إن الله يستحيل عليه فعل القبيح، والقبيح هو ما قبحه العقل، ويدخل فيه اللامعقول. هذا التراجع الواضح عن العقلانية ممن يطلق عليه أبو العقلانية الحديثة كان من جراء خضوع البورجوازية الفرنسية لسلطة الكنيسة في القرن السابع عشر، تلك الكنيسة التي سوف يثور عليها عصر التنوير الفرنسي في القرن التالي. يقدم لنا هذا النص دليلاً واضحاً على أن تصور ديكارت عن الإله في خطابه لميرسن هو تصور لاهوتي تماماً وليس تصوراً فلسفياً عقلانياً، وهو ما يمثل النزعة المحافظة للبورجوازية في ذلك العصر واستسلامها للسلطة الملكية وتسليمها بالأساس اللاهوتي الذي تقوم عليه هذه السلطة وهو الحق الإلهي للملوك. والحقيقة أن مواقف ديكارت هذه تجعل مواقف عصر النهضة الإيطالية في القرن السابق عليه أكثر ثورية وتقدمية، بسبب ثورية البورجوازية في عصر النهضة مقارنة بمحافظتها في عصر ديكارت.

٢. تناقضات تصور ديكارت للإله:

في فلسفة ديكارت تناقض عميق حول تصور الإله. فهو يتصور الإله في رسائله إلى صديقه ميرسن وفي بعض كتاباته الأولى على نموذج الملك المطلق الذي لا يخضع لقانون، والذي يستطيع أن يغير إرادته كما يشاء؛ لكنه في "التأملات" يتصور الإله على أنه قوة لاشخصية متوافقة مع الطبيعة وقانونها، وعلى أن إرادته هي قانون الطبيعة ذاته.

---

32) Descartes: "Letter to Mersenne (April 15, May 6 and May 27, 1630", The Philosophical Writings of Descartes, vol. III, (London. New York: Cambridge University Press, 1985), P. 23; cited in Negri, P. 111.

33) loc.cit.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا التناقض بين تصورين متعاكسين للإله هو انعكاس لموقف البورجوازية التاريخي والسياسي، والذي تمثل في اكتشاف العلم الحديث وتولي اختراع السوق الرأسمالي مما مكنها من شيء من السيطرة على جانب من العالم المادي، وهذا هو أصل اعتقادها في الإله اللاشخصي الذي تتحد فيه إرادته مع قانون الطبيعة، وهو التصور المقترب للغاية من تصور الإله في مذهب الدين الطبيعي والتأليه الطبيعي Deism؛ ومن جهة أخرى خضوع نفس هذه الطبقة البورجوازية للملكية والكنيسة وللحق الإلهي للملوك وضرورة العمل في ظل هذا الوضع السياسي وقبوله، وهو ما ينتج لديها تصور الإله الشخصي المتجاوز للطبيعة والذي يفرض إرادته كيف يشاء مثلما يفعل الملك.

على الرغم من أن إثبات وجود الله هو من الأهداف الأساسية لديكارت في تأملاته، إلا أن الإله الذي يثبت وجوده ليس هو الإله المسيحي، وليس الإله المشخص بالمعني الديني التقليدي. إن الإله الذي يثبت ديكارت وجوده ليس الإله الآب، الأقنوم الأول في الثالوث المسيحي، وليس الإله المشرع الأخلاقي، المثيب والمعاقب. بل هو الإله الضامن لوجود الأنا ذاتها، الضامن لصدق المعرفة ولصدق الرابطة بين الذات العارفة والعالم. إنه الطرف الوسيط بين الأنا الواثقة من وجودها ككيان مفكر، والعالم المواجه لها؛ إنه الإله المحايث بين الأنا والعالم، وهو تصور يقترب من مذهب التأليه الطبيعي Deism في مقابل مذهب الألوهية الشخصية Theism. وهو بذلك ليس إله الإيمان بل إله العقل؛ ليس الإله باعتباره القوة الخفية المحتجبة في السماء والذي تظهر قوته بفعل المعجزات عن طريق تجاوز قانون الطبيعة، بل هو الإله الخارج من تفكير الذات المتأملة، والضامن لصدق المعرفة البشرية بالعالم. صحيح أن ديكارت قد وعد علماء اللاهوت في رسالة الإهداء بأن يثبت قدرة العقل على إثبات وجود الله، على سبيل الدعم العقلي لعقيدة الكنيسة ولقضية الإيمان، إلا أن ما يفعله ديكارت على الحقيقة في تأملاته هو إثبات إمكان استغناء الذات العارفة عن العقائد الكنسية والإيمان التاريخي التقليدي، بإثباته قدرة العقل على البرهنة على وجود الله وخلود النفس دون مساعدة من كنيسة أو وحي أو كتاب مقدس.

إن ديكارت يثبت إلهاً أقرب إلى صورة الإله في مذهب التأليه الطبيعي، الإله الذي يكشف عن نفسه للعقل والفكر المجرد من خلال النور الفطري لهذا العقل، لا الذي يكشف عن نفسه لنبي عن طريق الوحي. ومعنى هذا أن البورجوازية ليست في حاجة إلى الكنيسة، وأنها تستطيع بقدرتها الفكرية وحدها إثبات رأس العقائد الإيمانية وهو وجود الله وخلود

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النفس لكن بطرق غير كتابية وغير كنسية وغير نبوية، بالعقل لا بالوحي. لكن البورجوازية التي ليست في حاجة إلى وحي أو كنيسة أو كتاب مقدس في فكرها العقلاني الحر المستقل، هي نفسها البورجوازية الخاضعة للكنيسة وللملك المدافع عن هذه الكنيسة والذي يجد فيها شرعيته. وهذا هو السبب في تراوح موقف ديكارت من الإله بين الإله اللاشخصي لمذهب التأليه الطبيعي والإله الشخصي لمذهب التأليه الديني. إذا كانت فلسفة ديكارت تتصف بثورية ما، فإن إثباته لوجود الله وخلود النفس بالعقل وحده ربما كان هو الجانب الثوري الوحيد في فلسفته. وهذا هو السبب في مواجهة السلطات القائمة في عصره لفلسفته واتهامها له بالمراوغة وسوء النية.

لكن تتضح القطيعة الخفية التي أحدثها ديكارت مع عصر النهضة ومع الفكر الإسكولائي في تجنبه للإشكاليات التقليدية التي حكمت المناقشات الفلسفية من العصور الوسطى إلى القرن السابع عشر والتي سيطرت عليها الرشدية: قدم العالم وطبيعة خلود النفس، أو بالأحرى طبيعة النفس الخالدة، بمعنى، هل العالم قديم أم محدث؟ وهل النفس الخالدة هي النفس الفردية أم النفس الجمعية؟ لقد كان ديكارت صامتاً تماماً وعن قصد إزاء الفصل في هذه الإشكاليات،ونحاها جانباً. صحيح أن ديكارت كان قد سبق وأن أشار إلى خلق العالم بطريقة غير مباشرة في رسائله السابقة على التأملات، إلا أنه لم يكن صريحاً حول هذه المسألة في التأملات ذاتها. كما أن النفس التي يثبت وجودها وخلودها في التأملات وهي الأنا أفكر، لا يتضح منها ما إذا كانت النفس الفردية أم الذات الجمعية. صحيح أن ديكارت قد أثبت فردية الأنا أفكر، مما يعني أن الخلود الذي يثبته لهذه الأنا المفكرة هو خلود فردي، إلا أن ديكارت لم يثبت استمرار الأنا المفكرة في البقاء بعد موت البدن. كل ما أثبته ديكارت هو استقلال الأنا المفكرة عن البدن في فعل التفكير، واعتقد بناءً على ذلك أن استقلالها عن البدن في نشاطها الفكري يؤهلها للبقاء جوهراً مستقلاً بعد فناء البدن. لكن ديكارت بذلك قام بارتكاب أغلوطة، وهي نقل حكم الشيء وهو في حالة على ذلك الشيء وهو في حالة أخرى؛ وكأنه قال إن النفس قادرة على التفكير في استقلال عن البدن وهي في حالة الاتحاد مع البدن، وبالتالي تكون قادرة على البقاء والخلود في حالة فناء البدن، نظراً لاعتقاده أنها مستقلة عنه في فعل التفكير. لكن الاستقلال المعرفي للنفس عن بدنها في التفكير شيء، والاستقلال الأنطولوجي الواقعي للنفس عن البدن ووجودها جوهراً مستقلاً بعد فناءه شيء آخر. والملاحظ أن هذه الصعوبات في شأن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قضية خلود النفس كانت هي التي تطرحها الرشدية اللاتينية منذ العصور الوسطى، والرشدية الإيطالية في عصر النهضة، وقد غض ديكارت الطرف عنها تماماً، عن قصد، نظراً لأن الإشكاليات الرشدية كانت لا تزال تؤرق السلطات الدينية في عصر ديكارت، تلك السلطات التي كانت لا تزال متدخلة في شؤون التعليم، وخاصة في تعليم الفلسفة في الجامعات. ويبدو أن الحظر الذي أعلنته الكنيسة الكاثوليكية في المجمع اللاتيراتي الخامس (١٥١٣) على تدريس الفلسفة وتقييدها لهذا التدريس قد أثر في طريقة تعامل ديكارت مع قضية خلود النفس[٣٤].

لكن يبقى أمامنا التأكيد مرة أخرى على أن الدليل الأنطولوجي على وجود الله وخلود النفس كان هو الأنسب لطبقة نبلاء الروب البورجوازية التي كان ينتمي إليها ديكارت. فهو الدليل الذي يثبت وجود الله من الفكرة الواضحة المتميزة عن الموجود الضروري بإطلاق[٣٥]، والذي يثبت خلود النفس من استقلال فعلها في التفكير عن البدن، إذ لما كانت مستقلة عن البدن في الفكر، فيجب بالضرورة الأنطولوجية أن تكون مستقلة وجودياً عنه ولابد أن تكون باقية بعد فناءه. إن الدليل الأنطولوجي هو الذي يثبت مطلوبه بالفكر وحده وانطلاقاً من الضرورة الفكرية التصورية وحدها، وهو الأنسب لتلك الفئة المتخصصة في العمل الذهني، التي لا يكون أي شيء ممكناً لديها في الواقع إلا إذا كان ممكناً في الذهن وعلى الورق من البداية.

٣. الأسباب الاجتماعية لتصعيد ديكارت لفكرة الكمال إلى الإله:

يقول ديكارت في التأمل الثالث إن في العقل الإنساني فكرة واضحة عن الكمال وعن موجود ضروري يتصف بهذا الكمال، وإنه لما كان الإنسان ليس مصدر هذه الفكرة عن الكمال لأنه ناقص، فيجب أن يكون مصدرها هو الإله الكامل نفسه. لكن الذات الإنسانية التي ليست هي مصدر فكرة الكمال في التأمل الثالث هي تعبير عن البورجوازية التي ترى

---

34) ويظهر هذا واضحاً في ذكر ديكارت لهذا المجمع في رسالة الإهداء التي قدم بها تأملاته. حول أثر معاداة الكنيسة لنظرية ابن رشد في النفس والعقل والخلود في تأملات ديكارت، انظر: Abraham Anderson: "Descartes Contra Averroes?: The Problem of Faith and Reason in the Letter of Dedication to the Meditations", Interpretation, Vo. 32, no. 2, Winter 1996, pp. 209-221.

35) ترجع فكرة "الموجود الضروري بإطلاق" absolutely necessary being إلى مفهوم ابن سينا عن "واجب الوجود بذاته"، وقد انتقلت إلى الفكر الأوروبي على يد ألبرت الكبير وتوماس الأكويني.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أنها ليست هي مصدر النظام العقلاني الكامل الذي يمكن أن ينتظم به المجتمع والعالم. لا يتوصل ديكارت إلى فكرة الكمال من تأمله لنظام العالم ولأحوال الاجتماع البشري، لأن نظام العالم لديه لا يمكن الإحاطة به بالكامل، نظرياً لعدم سيطرة البورجوازية على العالم في عصره، كما أن الاجتماع البشري ليس مصدراً للنظام الذي يمكن أن ينتظم به وتتم عقلنته على أساسه، كما فعل أفلاطون وأرسطو، بل هو مجال الفوضى واللاتعين والصراع. والملاحظ أن ديكارت كان يكتب أثناء حرب الثلاثين[٣٦]، وهي عصر الفوضى الشاملة في أوروبا كلها. ولذلك كله يصعِّد ديكارت فكرة الكمال إلى الإله، ويخرجها من العالم الطبيعي والعالم البشري. فالإله وحده عند ديكارت هو الكامل، أما العالم الإنساني فهو ناقص، ولا يمكن للإنسان أن يكون هو مصدر فكرة الكمال. إن في عقله فكرة عن الكائن الكامل، لكنه ليس هو مصدرها، ولذلك يجب أن يكون مصدرها هو هذا الكائن الكامل نفسه. وكأن الكائن الكامل يُدخل في صميم العقل البشري فكرة الكمال كما لو كان هذا العقل يتلقى الوحي منه. إن تصعيد فكرة الكمال إلى الكائن الكامل ينطوي على إنكار لإمكان أن يكون العالم كاملاً أو أن يكون الإنسان كاملاً، وهذا هو ما يعبر عن اغتراب البورجوازية في أزمة القرن السابع عشر. وعلى الرغم من أن فكرة الكمال باطنة ومحايثة لعقل ديكارت، إلا أنه يصر على أنه ليس مصدرها لأنه كائن ناقص. وفكرة النقص هذه نابعة من شعور بالعجز من قِبَل الطبقة التي ينتمي إليها ديكارت، عجز عن أن تبني عالماً أكثر كمالاً مما هو عليه. يبقى إذن أن يكون مصدر الفكرة هو الكائن الكامل نفسه وكأن عقل ديكارت قد تلقى منه الوحي. وهكذا يلتقي العقل والوحي عند من قيل عنه إنه أبو الفلسفة الحديثة ورائد العقلانية. لكن من الممكن تأويل حضور الإله في العقل الفطري بطريقة رجعية محافظة كما نجد عند ديكارت، وبطريقة ثورية جداً على اعتبار أن العقل يمكنه الاستغناء عن الوحي في معرفة الله، لأن فكرة الله فطرية فيه. وهكذا اختلفت تأويلات فلسفة ديكارت بين هذين النوعين المتناقضين من التأويل.

---

36) وهي الحرب الأوروبية الشاملة التي استمرت من ١٦١٨ إلى ١٦٤٨، وكانت أكبر صراع مدمر شهدته أوروبا بين الكاثوليك والبروتستانت، ثم تحولت بعد ذلك إلى حرب فرنسية نمساوية حول السيادة ومناطق النفوذ في أوروبا الوسطى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رابعاً: المشروطية الاجتماعية والسياسية لتجاوز سبينوزا للمذهب الديكارتي:

إن كل الثنائيات التي رأيناها في فلسفة ديكارت، والناتجة عن الوضع التاريخي للبورجوازية الفرنسية في عصره، وخاصة الناتجة عن وضع شريحة نبلاء الروب في هذه الطبقة، ستختفي مع سبينوزا، لأسباب كثيرة تتركز حول اختلاف الوضع الطبقي للبورجوازية الهولندية عن مثيلتها الفرنسية.

لقد جاءت فلسفة سبينوزا مختلفة في كل شيء عن فلسفة ديكارت. فبدلاً من ثنائية النفس والبدن الديكارتية، نجد وحدة تامة للكيان الإنساني وهوية كاملة بين النفس والبدن[٣٧]؛ وبدلاً من الإله المفارق للعالم والمتجاوز للطبيعة وغير الملتزم بقوانينها عند ديكارت، نجد عند سبينوزا توحيداً وهوية مطلقة بين الإله والعالم في أشهر مذهب في وحدة الوجود Pantheism[٣٨]؛ وبدلاً من الثنائية الجوهرية من الفكر والامتداد وإلحاق ديكارت كل جوهر بحامل لهذا الجوهر، نجد عند سبينوزا جوهراً واحداً، وما الفكر والامتداد سوى صفتين لهذا الجوهر. فما كان جوهراً مستقلاً عند ديكارت تحول إلى صفة لجوهر واحد عند سبينوزا؛ وبدلاً من فكرة خلق العالم عند ديكارت والتي ربما قالها لاعتبارات دينية، نجد عودة قوية إلى فكرة قدم العالم عند سبينوزا؛ وبدلاً من الانفصال الأصلي بين الماهية والوجود عند ديكارت، سنجد توحيداً بينهما على مستوى الإله وعلى مستوى الطبيعة أيضاً عند سبينوزا.

وبعبارة واحدة، لقد تخلص سبينوزا من كل ثنائيات ونقائض فلسفة ديكارت، أي تخلص من كل الانعكاسات الفلسفية الذهنية للوضع الطبقي المأزوم وما نتج عنه من وعي منقسم يرجع إلى الوضع الطبقي للبورجوازية الفرنسية.

إن فلسفة سبينوزا هي النقيض التام لفلسفة ديكارت، في بنائها العام وفي تفاصيلها الجزئية وفي رؤيتها للعالم. ولم يأت كل ذلك مصادفة، بل إن سبينوزا كان يقصد أن تأتي فلسفته على النقيض من فلسفة ديكارت، وعمل على بناء مذهبه باعتباره المقابل والعكس التام لمذهب ديكارت. لكن ما يكمن تحت هذا الاختلاف التام ليس مجرد رغبة شخصية

37) Spinoza, Ethics II, Prop. 3, 4; in, Complete Works, translations by Samuel Shirley. Edited with introduction and notes by Michael Morgan (Hackett Publishing Company: Indianapolis/ Cambridge, 2002).
38) Spinoza, Ethics I, prop. xi, xvi.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لدى سبينوزا في أن يكون مختلفاً، ولا تفضيلاً خاصاً به لمذهب وحدة الوجود وفلسفة الهوية المطلقة على مذهب ديكارت الثنائي؛ بل الأمر يرجع إلى السياق التاريخي، الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي كان يعيشه سبينوزا، والذي أدى إلى اختلاف رؤيته للعالم عن رؤية ديكارت.

لقد رأينا أن ديكارت ينتمي إلى طبقة نبلاء الروب من البورجوازية الفرنسية، تلك الطبقة المقيدة بارتباطها بالسلطة الملكية وبدين الدولة الرسمي وهو المسيحية الكاثوليكية. وكان النظام الملكي الفرنسي في القرنين السادس عشر والسابع عشر هو أقوى الأنظمة الأوروبية الحامية للكاثوليكية والملتزمة بها، وبمساعدة الملكية الفرنسية نجحت الكنيسة الكاثوليكية في القيام بإصلاح مضاد للحركة البروتستانتية؛ فكان على المفكرين الفرنسيين أن يلتزموا بالصيغة الإصلاحية للكاثوليكية وإلا صاروا غير مخلصين لنظامهم السياسي. وهكذا صار الالتزام الديني قريناً للالتزام السياسي. ولما كانت مصالح طبقة نبلاء الروب مرتبطة بالنظام الملكي، فقد فرضت على نفسها الدفاع عن دين الدولة الرسمي كذلك. هذه الطبقة كانت قد أُجبرت على التخلي عن طموحاتها السياسية في سبيل المحافظة على مكتسباتها الاقتصادية الحالية؛ إنها طبقة فرض عليها الأمر الواقع أن تكون محافظة، تقبل الحكم الملكي لأنه هو الضمانة الوحيدة لبقائها ولتدعيم وضعها في مقابل الأرستقراطيات القديمة، عسكرية كانت أو إقطاعية؛ وتقبل سلطة الكنيسة ونسقها الأيديولوجي لأنها لم تكن قادرة على مواجهتها ولا على الإتيان ببديل عنها. فجاء فكر ديكارت مهادناً ومحافظاً، بل ومنافقاً في بعض الأحيان مثلما يظهر في إهدائه لتأملاته إلى أساتذة وعمداء كلية اللاهوت المقدسة بالسوربون. وبذلك لم تستطع فلسفة ديكارت أن تقوم بقطيعة حادة وشاملة مع التراث الفلسفي للعصور الوسطى المسيحية، بل كررت نفس الثنائيات المسيطرة على فكر العصور الوسطى، وشكلت تراجعاً عن ثورية فلسفة عصر النهضة التي سادتها النزعات الرشدية والأفلاطونية المحدثة.

أما مع سبينوزا فلا نجد في موطنه هولندا سلطة ملكية مطلقة ولا كنيسة كاثوليكية قومية تقوم بإصلاح مضاد ومقاومة عنيفة، عسكرية وسياسية معاً، للبروتستانتية؛ بل نجد طبقة بورجوازية ناجحة، استطاعت التخلص من الاحتلال الأسباني منذ أواخر القرن السادس عشر. وقد كانت أسبانيا الدعامة القوية للكنيسة الكاثوليكية في جنوب أوروبا لعصر طويل من العصور الوسطى المتأخرة وحتى أوائل القرن السابع عشر. وعلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المستوى الديني نجد هولندا وهي رائدة الحركة البروتستانتية وحامية التعددية الدينية والمذهبية، كما نجد بورجوازية هولندية استطاعت أن تقيم نظاماً ديموقراطياً سبق الثورات الإنجليزية (١٦٨٨) والفرنسية (١٧٨٩) بفترة طويلة (١٥٦٨)، وطورت اقتصاداً نقدياً منذ وقت مبكر كان هو المسيطر على التجارة الأوروبية الخارجية مع الأمريكتين وجزر الهند الشرقية (قبل صعود شركة الهند الشرقية الإنجليزية في القرن الثامن عشر). ولذلك كله جاءت فلسفة سبينوزا ثورية، نظراً لنجاح ثورة البورجوازية الهولندية، سياسياً واقتصادياً ودينياً؛ كما جاءت فلسفته متحررة من كل ما كان يكبل فلسفة ديكارت من اعتبارات دينية وسياسية.

لكن لم تكن هولندا هي القاعدة في التطور البورجوازي الأوروبي، بل كانت الاستثناء؛ إذ كانت محاطة بأنظمة ملكية مطلقة سيطرت فيها كنيسة قوية، سواء في فرنسا أو النمسا أو أسبانيا الكاثوليكية أو في إنجلترا البروتستانتية. وسرعان ما انتهت التجربة الهولندية الشاذة والنادرة والسابقة على عصرها، بعودتها إلى النظام الملكي المطلق، وإلى تشدد ديني في صيغة بروتستانتية جديدة. وسرعان ما فقدت هولندا ريادتها الاقتصادية وتفوقها على باقي القوى الأوروبية، وتفوقت عليها انجلترا وفرنسا في مجال التجارة الدولية والسيطرة النقدية على هذه التجارة في أواخر القرن السابع عشر، واضطرت هولندا إلى الانضواء تحت سياسات التوازنات الأوروبية التي كانت تتبادل قيادتها انجلترا وفرنسا. ولما كانت فلسفة سبينوزا قد ظهرت في البلد الاستثنائي ذي التطور الرأسمالي الاستثنائي بالمقارنة بباقي أوروبا، فقد كانت لذلك فلسفة استثنائية وظهرت على أنها نشاز عن التوجهات العقلية والتجريبية السائدة آنذاك[٣٩]. وقد حوربت هذه الفلسفة طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر، ومارست السلطات الأوروبية الحظر والإدانة لمؤلفات سبينوزا، وكفرت سبينوزا نفسه ونظرت إليه على أنه مهرطق[٤٠].

---

39) ولذلك وصفها نيجري بأنها نشاز خارج عن المألوف anomaly.

40) وعندما يرسم جوناثان إسرائيل صورة لسبينوزا على أنه هو وحده رائد عصر التنوير والأب المباشر له، فهو محق في ذلك، لأن فلسفة سبينوزا كانت في غير أوانها، ولم تُحدِث تأثيرها المتوقع إلا في القرن التالي، قرن عصر التنوير. ألف إسرائيل ثلاثة كتب موسوعية ضخمة حول عصر التنوير ترسمه على أنه نابع من فكر سبينوزا: Israel, Jonathan, *Radical Enlightenment. Philosophy and the Making of Modernity 1650-1750.* (Oxford: Oxford University Press, 2001); *Enlightenment Contested. Philosophy, Modernity, and the Emancipation of Man 1670 – 1752* (New York: Oxford University Press, 2006); *Democratic Enlightenment. Philosophy, Revolution, and Human Rights 1750 – 1790*. (New York: Oxford University Press, 2011)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فمع طبقة بورجوازية هولندية ثورية وقوية وناجحة، أتت فلسفة سبينوزا ثورية مثل الطبقة التي ينتمي إليها ويعبر عنها في الفكر. وهو بذلك لم يكن مقيداً بما كان يقيد ديكارت، ولذلك خلت فلسفته من التناقضات والنقائض والصعوبات التي امتلأت بها فلسفة ديكارت. إذا كانت فكرة الألوهية تعبر عن الحقيقة المطلقة النهائية، فإن سبينوزا لم يكن بحاجة إلى إلقاء هذه الحقيقة المطلقة بعيداً إلى سماء غير قابلة للفهم وغير ممكن الوصول إليها بالعقل. إذ قد صارت الحقيقة المطلقة عنده محايثة للعالم وحالَّة في جميع أجزائه. ذلك لأن التصور الديكارتي عن الإله مغترب ويعبر عن اغتراب البورجوازية في عالم لم تستطع السيطرة عليه وتراجعت أمام السلطات القائمة. فصارت الحقيقة المطلقة عند ديكارت إما غير منتمية لهذا العالم في صورة الإله، أو في صورة الأنا المنغلق المنعزل داخل فكره.

أما مع سبينوزا المعبر عن البورجوازية الهولندية الناجحة التي استطاعت السيطرة على عالمها وخلق الدولة المناسبة لها والاقتصاد المتماهي معها بالكامل، فإن الحقيقة المطلقة لديه لم تكن مفارِقة مغتربة بل صارت محايثة للعالم، لأن البورجوازية الهولندية كان قد سبق وأن خلقت العالم الذي تريده ونجحت في ذلك. وبذلك صارت الحقيقة المطلقة عند سبينوزا هي كل العالم ومحايثة في هذا الكل، وصار العالم قديماً وقوانينه وحقائقه أزلية، في مقابل حدوث العالم وقوانينه عند ديكارت. وفي مقابل إثبات خلود النفس الفردية عند ديكارت، والذي يعبر عن رغبة ديكارت في مهادنة السلطات الكنسية القائمة، لم يكن سبينوزا في حاجة إلى هذه الفكرة، إذ أكد على فناء النفوس الفردية وخلود العقل الكلي. والمعنى السوسيولوجي الكامن في هذه النظرية السبينوزية هو أن الفرد البورجوازي يستطيع أن يموت وهو مطمئن من أن طبقته سوف تستمر من بعده استمراراً جمعياً، ذلك لأن الخلود النوعي الذي تعبر عنه فلسفة سبينوزا هو تعبير فلسفي عن استغناء سبينوزا عن الفردية البورجوازية، في مقابل بقاء الطبقة بعد موت أفرادها. ذلك لأن البورجوازية الفرنسية في عصر ديكارت لم تكن تضمن بقاءها إلا بالدفاع عن الفرد البورجوازي؛ فهذا الفرد بفكره الانعزالي المستقل وإرادته الحرة كان هو الضمانة الوحيدة لبقاء الطبقة بعد انتفاء كل الشروط الموضوعية لبقائها بعيداً عن النزعة الفردية. أما فكرة الخلود بالنوع أو الخلود النوعي الجمعي عند سبينوزا فهي تعبر عن درجة عالية من الاستقلال والتسيير الذاتي للبورجوازية كطبقة لا كأفراد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صحيح أن فكرة فناء النفوس الفردية وخلود العقل الكلي عند سبينوزا مأخوذة من ابن رشد والرشدية اليهودية، إلا أن بواعث تبني سبينوزا لها مرتبطة بالوضع الطبقي للبورجوازية الهولندية في عصره، والتي طورت وعياً طبقياً عالياً استطاع تجاوز النزعة الفردية الأقل نضجاً والأكثر طفولية للبورجوازية الفرنسية الأقل تطوراً في ذلك العصر. إن الوضعية الطبقية التي عاشها سبينوزا في عصره هي التي جعلته يتبنى هذه النظرية الرشدية. وهنا تصدق نظرية ماكس فيبر في القرابة المختارة elective affinity، والتي تذهب إلى أن جماعة اجتماعية ما يمكنها أن تعيد إحياء أفكار ومذاهب وفلسفات قديمة سبق ظهورها في عصر ماضٍ عندما يحدث بين فكر الماضي والوضع الاجتماعي الجديد نوع من التقارب والتناسب، يجعل الفكر القديم معبراً عن الحالة الاجتماعية الجديدة أو عن الأيديولوجيا التي تتبناها طبقة ما[٤١]. فنظرية سبينوزا في الخلود والأزلية كانت هي المناسبة للوضع التاريخي للبورجوازية الهولندية في عصره، على الرغم من انتماء هذه النظرية إلى عصور فكرية سابقة.

41) Gerth, H.H., and Wright Mills, C., From Max Weber: Essays in Sociology. (New York: Oxford University Press, 1946), pp. 62-63, 276, 285, 325, 348, 371.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خاتمة:

بعد أن تعرفنا على المشروطية المادية السوسيولوجية لفلسفة ديكارت، نكون الآن في وضع يسمح لنا بأن نعيد التفكير في علاقة الفكر بالواقع المادي الاجتماعي الكامن تحته والمحيط به من كل جانب. فهل العلاقة بين الفكر وأساسه المادي علاقة انعكاس؟ هل الفكر انعكاس لواقعه المادي تبعاً للنظرية الماركسية الشهيرة حول ثنائية البنية التحتية والبناء الفوقي؟

إن ما توصلنا إليه في هذه الدراسة يجعلنا نعيد النظر في هذه النظرية الآلية الميكانيكية التي تحملها النظرية الانعكاسية في العلاقة بين الفكر وأساسه المادي، والتي تتبنى السببية الخطية وحيدة الاتجاه من الأساس المادي باعتباره المتغير المستقل إلى البناء الفوقي الفكري باعتباره أثراً له. ذلك لأن العلاقة بين الفكر وأساسه المادي كما أثبتت هذه الدراسة لا تشير إلى السببية الخطية ولا إلى السببية الآلية بين المادي والفكري؛ ذلك لأن العلاقة الانعكاسية بين الفكر وأساسه المادي ليست انعكاسية بالمعنى السببي الخطي أو السببي الميكانيكي، بل هي انعكاسية بالمعنى العضوي؛ أي أن العلاقة بين الفكر وأساسه المادي هي علاقة عناصر متساوية مكونة لكل عضوي واحد، يتبادل كل منهما التأثير في الآخر والاثنان يتأثران معاً بالتشكيلة التاريخية الكلية لعصر ما والمكونة من أوضاع مادية وفكرية مترابطة عضوياً. فكل ما يحدث في العالم المادي الاجتماعي يجد ما يوازيه في العالم الفكري باعتباره انعكاساً له، على أساس توازي العالمين وتشكيلهما لكل عضوي واحد يعبر عنه مصطلح "التشكيلة التاريخية". هذه التشكيلة التاريخية هي شروط مادية اجتماعية وفكر نابع من هذه الشروط، هي طبقة وفكر هذه الطبقة في اتحاد عضوي.

وما يبرر لنا هذه النظرة الجديدة للعلاقة بين الفكر وأساسه المادي هو نظرية سبينوزا القائلة إن نظام وترابط الأفكار هو نفسه نظام وترابط الأشياء. فهذه النظرية التي عاملت الأفكار والأشياء على أنهما يشكلان جانبين متوازيين لحقيقة كلية واحدة، تفيدنا في معالجة الأفكار وشروطها المادية على أنهما متوازيان من الأصل ويشكلان جانبين لتشكيلة تاريخية واحدة. هذه النظرية السبينوزية في علاقة التوازي بين الفكري والمادي كان لها بعض الآثار في معالجة لويس ألتوسير للمذاهب الفلسفية، والتي استفاد منها نيجري الذي استعنا به كثيراً في هذه الدراسة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا يمكن تفسير الفكر باعتباره انعكاساً لأساسه المادي إلا بوضع هذا الانعكاس نفسه في الإطار الأوسع للتوازي بين الفكري والمادي. وعندما يقول نيجري إن الأفكار هي استعارات ومجازات ذهنية لواقع مادي اجتماعي[٤٢]، فإن استعارية ومجازية الفكر لا يمكن تفسيرها إلا على أنها تتم داخل علاقة التوازي الأصلي هذه.

42) Negri, The Political Descartes, P. 235.

ينظر نيجري إلى الأنساق الفلسفية على أنها استعارات metaphors للسياسة وللعالم الطبقي للفيلسوف. وهكذا تكون فلسفة ديكارت كلها عبارة عن استعارات، أي نقل للواقع الاجتماعي والسياسي الذي يعيشه إلى المجال الميتافيزيقي، وتعبير فلسفي مجازي واستعاري عن الواقع المادي الذي يعيشه. ومفهوم الاستعارة الذهنية ومفهوم المجاز الفكري cognitive metaphor يختلف عن مفهوم الصورة الذهنية أو نظرية الانعكاس الفكري للواقع في الفكر لدى التيار الماركسي التقليدي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المراجع:

١. المراجع الأجنبية:

- Anderson, Abraham: “Descartes Contra Averroes?: The Problem of Faith and Reason in the Letter of Dedication to the Meditations”, ***Interpretation***, Vo. 32, no. 2, Winter 1996, pp. 209-221.
- Bourdieu, Pierre, ***The State Nobility: Elite Schools in the Field of Power.*** Translated by Lauretta C. Clough (Cambridge: Polity Press, 1996)
- Davidson, Neil, ***How Revolutionary Were the Bourgeois Revolutions?.*** (Chicago: Haymarket Books, 2012).
- Descartes, ***Meditations on First Philosophy***, in ***Philosophical Writings***, translated by Norman Kemp Smith. (New York: The Modern Library, 1958)
- ----------: “Rules for the Direction of the Mind”, in ***The Philosophical Writings of Descartes***, vol. I, (London. New York: Cambridge University Press, 1985)
- ----------: To Mersenne, On the Eternal Truths (April 15, May 6 and May 27, 1630”, in ***Philosophical Essays and Correspondence***, edt. Roger Ariew. (Indianapolis/ Cambridge: Hackett, 2000)
- Gerth, H.H., and Wright Mills, C., ***From Max Weber: Essays in Sociology***. (New York: Oxford University Press, 1946)
- Goldmann, Lucien***, Immanuel Kant*** (London/ New York: Verso, 2011/ first published 1945)
- ----------, ***The Hidden God: A Study of the Tragic Vision in the Pensee of Pascal and the Tragedies of Racine.*** Translated by Philip Thody. (London and New York: Routledge, 2014, 1st ed. 1964).
- Horkheimer, Max, ***Critical Theory***. Translated by Mathew J. O’Connell and others. (New York: Continuum, 2002)
- ----------, ***Eclipse of Reason***.(London and New York: Continuum, 2004)
- ----------: “The Rationalism Debate in Contemporary Philosophy”, ***Between Philosophy and Social Science. Selected Early Writings***. Translated by G. Frederick Hunter, Mathew S. Kramer & John Torpey (Cambridge: MIT Press, 1993)
- Lukacs, Georg, ***History and Class Consciousness***. Translated by Rodney Livingstone. (London: Merlin Press, 1967).
- Marx, ***Capital, I***. (Moscow: Foreign Languages Publishing House, 1959)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

- Mészáros, István, ***Social Structure and Forms of Consciousness.*** *Vol. I: The Social Determination of Method.* (New York: Monthly Review Press, 2010)
- Negri, Antonio, ***The Political Descartes:*** *Reason, Ideology, and the Bourgeois Project.* Translated and introduced by Matteo Mandarini and Alberto Toscano. (London. New York, Verso, 2007)
- ----------, ***The Savage Anomaly:*** *The Power of Spinoza's Metaphysics and Politics.* Translated by Michael Hardt. (Minneapolis, Oxford: University of Minnesota Press, 1991)
- Sartre, Jean-Paul, ***Search For A Method***. Translated with Introduction by Hazel E. Barnes (New York: Alfred A. Knopf, 1963).
- Sohn-Rethel, Alfred, ***Intellectual and Manual Labour: A Critique of Epistemology*** (London: Macmillan, 1978)
- Spinoza, ***Complete Works***, translations by Samuel Shirley. Edited with introduction and notes by Michael Morgan (Hackett Publishing Company: Indianapolis/ Cambridge, 2002).

٢. المراجع العربية:

- ديكارت: تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى. ترجمة كمال الحاج. منشورات عويدات، بيروت/ باريس، ١٩٨٨
- ديكارت: مقال عن المنهج. ترجمة محمود الخضيري. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٦٨
- ديكارت: قواعد لتوجيه الفكر. ترجمة وتقديم سفيان سعد الله. دار سراس للنشر، تونس ٢٠٠١

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com